سير الزمان

الخلق القومي

في المانيا وفرنسا وانكلترا

مشكلة العالم

الاقتصادية وعلاجها بحسب تقرير فان زيلند

بحث نفسي تاريخي مقابل في

الخلق القومي

في المانيا وفرنسا وانكلترا

أن السياسيّ الذي يقيم للمواد الخام وزناً في تقديره السياسي أكثر مما يقيم لفلسفة الشعب، او يعتقد ان الارقام اعمل اثراً في توجيه التاريخ من الشعور، لا بدّ ان تأخذه الدهشة عندما يشاهد بأمّ عينيه، ما لم يكن يتوقعهُ من تحوّل او انقلاب في اخلاق امةٍ من الامم، والفلاسفة وحدهم يستطيعون ان يستشفوا تطوُّر الاحوال الانسانية بدقةٍ، وهذا حكم يصدق على افلاطون وفيثاغورس وبنتشه صدقهُ على الفلاسفة الحديثين. ولو ان الالمان عنوا قبل الحرب الكبرى، بفهم الخلق الانجلو سكسوني، اكثر من عنايتهم بانباء الجواسيس وارقام المدافع، لما اقدموا على الحرب، واذا عني الانكليز والاميركيون الآن بدراسة الخلق الالماني فقد يكون في وسعهم ان يحولوا دون حربٍ أخرى تجمع نذرها في الافق الدولي

ان الفرق الحاسم بين تاريخ المانيا النفسي وتاريخ الشعوب الاخرى، هو التعارض في المانيا بين العقل والدولة. ففي العصور الزاهية في فرنسا وانكلترا نرى ازدهار الثقافة مقترناً باستفحال القوة المادية في الامتين. اما المانيا فقد كان عقلها يزدهر وثقافتها تشرق في العصور التي تنتابها فيها يد التمزيق والضعف. فاذا انحدرت على العدوّ وانبسط فوقها ظل القوة ضعف فيها الوزن الذي يقام للاعتبارات الروحية العالية. وفي وسع الباحث ان يتتبع هذه الظاهرة من عهد ارسموس المصلح الديني الى بلانك العلامة الطبيعي. بل ان جوته وهو اعظم حدث في تاريخ المانيا، نشأ في عصر كانت فيه المانيا ممزقة في الداخل مقهورة في الخارج. اما كوكبة الموسيقى من باخ الى شوبرت فارتفعت فوق ضعف الامة وتخاذلها كما تحلّق الطيارة فوق اطباق الضباب الكثيف

ان الرجال الذين اذاعوا ذكر المانيا في الخافقين، رجال الفن والاختراع والتفكير والشعر، نشأوا وعاشوا في اظلم عصورها بل وفي ولاياتها الصغيرة الضعيفة بالقياس الى بروسيا. بل ان بروسيا لم تنجب خلال التاريخ الالماني من القرون الوسطى الى عصرنا الحاضر موسيقيًّا واحداً ولا شاعراً واحداً في الطبقة الاولى بين الشعراء والموسيقيين

وليس بين رجال الفكر والقلم في المانيا من ادرك هذه الحقيقة كما ادركها جوته او كان أشدّ منهُ نقداً لها. ولذلك روي عنهُ انهُ ذكر وهو شيخ ان المعلمين الثلاثة الذين يدين لهم بكل شيء كانوا شكسبير الانكليزي ولينيوس السويدي وسبينوزا اليهودي. وقد عاش طوال حياته وهو يحسُّ ان الالمان «عظامٌ أفراداً ضعافٌ أمةً». ثم ان بطل جوته كان عدوّ وطنه — نبوليون — وأما نيتشه فقد حمل على بسمارك لانهُ جعل المانيا قوية

هذا الفصل بين الدولة والعقل في تاريخ المانيا ، ناشئ عن فقد روح الحرية الحقيقية . الا ان المانيا لم تكن الدولة الوحيدة التي قامت فيها طبقة عسكرية أخذت بيدها مقاليد الحكم لا ينازعها فيها منازع . ولكن الشعب قام في البلدان الاخرى على الطبقة العسكرية فأزالها من رفيع عليائها . أما المانيا فقد ظلت ثلاثة قرون متوالية ، والحاكم الحقيقي فيها طبقة الضباط (اليونكرز) وعليهم كان اعتماد الملك والامراء في الحماية وفي قمع كل ثورة . ولم يقم من صفوف الشعب من يثور على هذه الحالة . والمانيا هي البلاد الوحيدة في اوربا التي لم تقع فيها ثورة . فحرب الفلاحين قاومها لوثر مع انهُ أوحى بها ، وثورة سنة ١٨٤٨ انقضت قبل ان تترك أثراً باقياً ، أما في سنة ١٩١٨ فلم يكن هناك ثورة على رغم التحوُّل من ملكية تكاد تكون مطلقة الى جمهورية . وكل ما حدث في سنة ١٩١٨ ان طائفة من الامراء فرُّوا من البلاد ، تاركينها في أيدي فريق من أقطاب الاحزاب ، ليس لهم من المرانة والقدرة ما يمكنهم من تسيير مقدَّراتها . وهذا يفسِّر لك تلك الظاهرة الغريبة في تاريخ المانيا الحديث ، وهي ان ملكاً او أميراً من بيوتها المالكة لم يخلعهُ الشعب . وقد تبينت ذلك بنفسي بعد الحرب اذ زرت معظم الولايات الالمانية فكان أفراد الشعب يباهون بأنهم آخر من أشار على أمرائهم بالنزول عن عروشهم

ثم ان الشعب الالماني ، فلما كان برماً بأنهُ لم يمنح الحقوق التي تتمتع بها الشعوب الاخرى . بل كان مكتفياً راضياً بأن يترك مقاليد الحكومة والجيش لطبقة الضباط ، فطغوا وبغوا وكانت النتيجة ان الحرية أخذت تختنق حالة ان التجارة أخذت في الاتساع . ومن غريب ما أرويهِ في هذا الصدد انني كنت أحدث أحد دعاة « اليونكرز » قبل الحرب فقال لي « سأخلف مالي وأرضي لاذكى أبنائي وأما من يليهِ فليتنظم في الجيش والثالث في وزارة الخارجية » . اما الرجل من الطبقة المتوسطة فكان يعتقد أنهُ على نجاح ابنهِ في تجارته او صناعته او فنه . وكذلك ترى ان معظم اصحاب العقول الثاقبة والارواح الثيرة في الامة الالمانية مستمدَّة من الطبقة الوسطى . وأما القواد والوزراء فيكادون ينحصرون في الطبقة الارستقراطية . ولا يسعنا ان نقول ان مجد المانيا الحقيقي قام على مثل الطبقة الارستقراطية ، يستثنى من ذلك بسمرك السياسي وكلايست الشاعر

هذا الفصل بين العقل والدولة في كل العصور كان الباعث على رسم صورة مزدوجة لالمانيا تنشىء اضطراباً وغموضاً في ذهن من يحاول ان يفهمها . فالمتتبع للتاريخ الالماني ، للعجب يجدها الفني والفكري كثيراً ما يسأل : ما السرُّ في أن البلاد التي انجبت جوته وبيتوفن ، ترتدُّ في الحين بعض الحين ، او بالحري تحطُّ في الحين بعد الحين ، الى مستوى هو دون المستوى العالي الذي بلغتهُ في الثقافة والحضارة ؟ إن السر في ذلك ان الرجل — رجل الشارع كما يصفونهُ — يميل على طول الزمن الى تقليد الرجال الذي يمثلون القوة والسلطان في قومهِ . فاذا رأى الطلاب ان المثالي الكبير او الاستاذ العظيم ، لا يدخل ذلك المجتمع الزاهر الا من باب الرتب العسكرية

والملابس الرسمية الفخمة ، فلا تعجب اذا رأيتهم يقلدون الجنود في مظهرهم وان يعمدوا الى اثخان وجوههم بالجراح في مبارزات ينيمونها لاوهى الاسباب . ومن كان وجهه اكثر ندوباً كان أعلى من زميله مقاماً . ان الملابس العسكرية والمبارزات الدامية استعادت مكانتها في المانيا الحاضرة ، وغدا الضابط كما كان بطل كلّ فتاة

وكانت نتيجة هذا التنظيم العسكري الدقيق ، فوضى الروح . ذلك ان صورة الدولة كما كانت طبقة الضباط تتخيلها ، جاءت بعيدة البعد كلهُ عن مثُل العقل واهدافه العليا . فالطاعة والنظام لا بدَّ منهما في دولة من هذا القبيل ، ولذلك رفعا الى المقام الاول بين الفضائل . والالمان هم الامة الوحيدة على الارض التي تطيع عن شعور لا عن ضرورة . وكذلك انكمشت «مشيئة الحرية» فلم تجد لها ميداناً الاّ في ساحة العقل ، فتولّدت منها «نزعة الفردية» التي أشار اليها جوته وترسخت

هنا نقبل على أهم الفروق بين الخلق الشعبي الالماني والخلق الشعبي الفرنسي . ذلك ان «الطاعة» تسود الحياة السياسية والاجتماعية في المانيا ، يقابلها نزعة قوية أساسها مقاومة القواعد الجامدة في حياة العقل . أما في فرنسا فالامر على نقيض ذلك . فالكاتب الفرنسي اذا استعمل صيغة من الصيغ التي ليست في القاموس الانسكلوبيذي اتهم بانتهاك احد القوانين . ولكن اذا علّق في الشارع اعلان يأمر الناس في باريس ان يمشوا الى يمين الشارع مشوا الى اليسار

إن أكبر خطر يتعرّض له سياسيٌّ الماني ، اشتهارهُ بانهُ عالم بحاثة في موضوع ما . ولو أن وزيراً المانيًّا ألف كتاباً عن هوميروس كما فعل غلادستون ، لكان موضوع سخرية . ثم ان فريقاً غير يسير من وزراء انكلترا الف روايات . اما في فرنسا فقلما تجد وزيراً لم يؤلف . ولكن ماذا تجد في المانيا — انها تهزأ براتينو لانهُ ألف ونشر خمسة مجلدات او ستة . وقد ظل البرنس بولوف يخفي عن قومه عشر سنوات انهُ من المتعمقين في دراسة فوست وفهمها . فالالماني يحكم بالسيف لا بالقلم

وهذا من اسرار الخلاف الدائم بين الجارتين الكبيرتين المانيا وفرنسا ، وهو لا يمكن ان يفهم على صحته الاّ اذا درس الخلق القومي في الامتين . الواحدة تملك ما يعوز الاخرى ، وما يضعف الاولى يعزز من قوة جارتها . هنا على جانبي خط واحد ، امة دقيقة النظام جامدته تقابلها اخرى قليلة النظام وقلما تعبأ به اذا زاد عن حد معين . الواحدة متصفة بنزعة الى الصوفية . والثانية باجلال للمنطق . احداها تبغي التوسع والثانية لا تريد سوى الدفاع

ان الالمان يسخرون كيامة الفرنسيين . والفرنسيون لا يأمنون توفّر الالمان . فالرجل الفرنسي يريد ان يترك وشأنهُ ، بل يؤثر ألاّ يعلق اسمهُ على باب داره . اما في المانيا فثمة رجال مهمتهم ان ينظموا كل ناحية من نواحي الحياة حتى ناحية الملاهي . السلطات الحكومية في فرنسا على جانب عظيم من اللطف والظرف . ولكن بعض الخطابات تضلُّ طريقها . اما في المانيا فتصلك خطاباتك

في مواعيدها ولكن أولي الشأن يدمدمون في وجهك . كل انسان في فرنسا حتى رئيس الدولة «موسيو» . اما في المانيا فكل جزار وخباز يجب ان يكون ذا لقب. الفرنسي يحب هرهُ لانهُ يحتفظ بمنزله ويأبى كبيدمن يتق الاوباس من احد . وأما الالماني فيحب كلبهُ البوليسي الذي يقف كبيد مطيعاً منتظراً الاوامر للانقضاض على العدو . ان الخضوع محتقر في فرنسا مبجَّل في المانيا . وهذان الرجلان — هذان الامتان — مقضيٌّ عليهما ان يعيشا جنباً الى جنب...

واذا قابلنا بين الخلق القومي الالماني والخلق القومي الانكليزي ، تبيَّنا وجوهاً من الشبه في سجيتي الكفاءة في الاعمال وحب المغامرة في سبيلها . الاَّ انا نجد فطرة اللعب ونزعة التهكم عنصراً اساسيًّا في الخلق الانكليزي وكلتاها بعيدة عن الخلق الالماني . ان الانكليزي يغلب عليهِ حسُّ التهزل ، والالماني حسُّ المأساة بل و «حب الموت» على قول كلنصو . انهُ غير متصف بتلك التجرُّد الذي يحسب أساساً لفطرة اللعب السليمة . فهو لا يرغب في الظفر فقط بل ويحتقر الخاسر . وقد قيل أن الجنود الانكليز الاول الذين وقعوا في أسر الالمان في الحرب الكبرى حاولوا أن يصافحوا آسريهم فلم يمدَّ الماني واحدٌ يدهُ اليهم

لقد عاشت المانيا وكانها في ظل حكم دكتاتوري مطلق — اذا استثنينا عهد الجمهورية — مدى ثلاثة قرون وفي هذه الفترة لم يكن في وسع السلطة الحاكمة ان تتساهل في شأن التصوير الهزلي (الكاريكاتور) اذ ليس في المانيا شيء اصعبُ الجمع بين الولاء للحكام والهزل منهم . والهزل لا يمكن أن يكون بغير شعور الحرية ، والحرية لا تؤخذ الاَّ بالكفاح في سبيلها . ان الالماني يتصور الدولة حرماً ، ومطمحهُ الاعلى ان يكون اقرب ما يكون الى قدسه . اما كيف يتناول زعيم المعارضة في انكلترا مرتباً من الخزينة العامة فيحيّرهُ . عدد القوانين المسطورة في انكلترا على أقله وفي المانيا على أكثره . والقاعدة في انكلترا أن كل ما لم يمنع مباح . أما القاعدة في المانيا فان كل ما لم يُبَح ممنوع. واذكر اني عندما رأيت ركاب القطار في انكلترا يأخذون امتعتهم من عربة الامتعة بلا وصل أو وثيقة ، وأن الاعتماد في ذلك على « الكلمة » والثقة ظننت اني في جمهورية أفلاطون . على اني تبينت بعد ذلك بعض الفروق بين انكلترا والجمهورية الافلاطونية

ويجب ان نضيف الى فقد روح الحرية وشهوة الطاعة او الخضوع ، صفة ثالثة اساسية في الخلق الالماني ، وهي حب الالمان للموسيقى . ان تفهمهم لا يمكن ان يكون كاملاً الاَّ اذا فهمنا أثر هذا الحب في نفوسهم . فالموسيقى هي الواحة الظليلة التي يلجأون اليها من متاعب التنظيم الدقيق . وكذلك لجأ الالمان الى موسيقى بيتهوفن بعد خذلانهم في الحرب العالمية ، فعزفت موسيقاه في المانيا في السنوات التالية لعقد الصلح أكثر من اي عهد سابق

وليس من مجرَّد الاتفاق أن شعبين يكادان يكونان ابناء خؤولة وعمومة — كالانكليز

والالمان — يختلفان في موقفهما من الموسيقى هذا الاختلاف . فالانكليز شعبٌ سياسيٌّ والسياسة قائمة على النزعة العملية . وهو اذن ليس بالشعب الموسيقي ، لان حب الموسيقى الاصيل المتأصل ينبع من نزعة صوفية . ولذلك فالشعب الالماني ، ليس شعباً سياسيًّا او بالحري ان الناحية السياسية من حياته تغلب عليها نزعة صوفية تجعله خطراً دوليًّا ، وتقض مضاجع الحكومات ولا سيما وقد اضفيت الآن مسحة الصوفية على «القوة» لا على الدولة فحسب فأصبحت بمنزلة العقيدة الربانية

منذ ما انشأ بسمارك الريخ الاول ، خشي اعظم المفكرين الالمان ، وعلى رأسهم نيتشه تأثير الانتصارات العسكرية في نفس الامة . وقد قال لي راتينو وهو من خير من اسدى خدمة لالمانيا خلال الحرب ، «اذا انتصرنا فسأذهب الى سويسرا وأعيش فيها» ذلك انه كان يخشى طغيان الطبقة العسكرية وقد واتاها النصر . هذه الطبقة العسكرية هي الحاكمة بأمرها في المانيا الآن وسيهُ ان تدريب الشعب على الحرية ، وغرس اصولها في نفسه ، في حاجة الى نظام اقوى وارسخ من جمهورية فيمار

والعالم يواجه المانيا اليوم ، وهي على عهده بها سنة ١٩١٤ مستعدة للقتال والموت ، خاضعة للنظام ، آخذة بطاعة حكامها ، شاكية السلاح . ولكنها كانت سنة ١٩١٤ غنية واسعة التجارة جاهدة العمل مبدعة مبتكرة . يقابل ذلك انها تحسُّ اليوم بقوتها ولكنها تحسُّ كذلك بأن العالم غبنها ، وانها خلقت للحكم ولكن النصر انتزع منها خدعة ومَيْناً . فهي واقفة اليوم في دروعها تطلب الثأر . والخطر الصادر من المانيا في حالتها الحاضرة ليس سببهُ الرغبة في الحرب لصون الكيان بل الرغبة في الحرب لاسترداد ما تحسبهُ شرفاً مضاعاً

ان الالمان في قرارة قومهم لا يبغون المواد الخام والمستعمرات وحقول اوكرانيا . انهم يسعون وراء شيء يتزل في طبقة المثل العالية . انهم لا يبغون الحرب ليحفروا آباراً من الزيت خاصة بهم ، ولا ليزرعوا القطن الذي يحتاجون اليه في حقولهم . انهم يريدون الحرب للنصر نفسه . انهم يريدونها ليثأروا لانفسهم من الجناية التي اقترفت ضدهم عند ما انتزع منهم النصر خدعةً وغصبةً ملتوٍ في ايديهم ثم توّجت هذه الجناية بتلك الخزي ، خزي منعهم عن التسلح ا

لا يقنعهم اعجاب العالم بانهم ثبتوا في وجه العالم اربع سنوات ، ولا باعجاب العالم بالعلم الالماني والاختراع الالماني والفن والطيارات الالمانية وبما اخرجتهُ الامة الالمانية من مؤلفين وفلاسفة وشعراء وموسيقيين وكيماويين وأحيائيين . ان ذلك ليس مجداً كما تفهمهُ الامة العسكرية . انما المجد في نظرها فيني النصر بقوة السلاح وكل من يشعر انهُ غبن يبالغ في مطالبه . وخطر الحرب تتجمع نذره في الجوّ ، اذ ليس هناك ما يرضي المانيا إن نالته بالمفاوضة لا بالقوة والقتح . اعطهم تجنيقا غداً فيطالبوا بعد غدٍ بجميع المستعمرات . اعطهم دانتسج يطلبوا في الحال المجاز البولندي . انهم يشعرون

انهم ضحايا بريئة لدسائس العالم. ولكنهم يحسون في الوقت نفسه انهم على جانب من القوة لاخذ الثأر

واذا كان الالمان يطلبون النصر فذلك النصر يجب ان يتحقق في باريس. اذ من فرض عليهم عار فرساي؟ وقلما تجد من يشك في ان الفرنسيين — لولا تدخل ولسن — كانوا ينوون ضم الضفة الشرقية من نهر الرين وان الالمان كانوا عازمين على استبقاء جميع البلاد التي فتحوها. على ان الشروط الباهظة التي فرضها الالمان على رومانيا وروسيا لا تسوّغ في نظرهم ما ارتكب في معاهدة فرساي من الاخطاء. ذلك ان المشهد الذي تمَّ في بهو المرايا في قصر فرساي عند توقيع معاهدة فرساي مطبوع في ذهن كل طفل الماني. وقد ولَّد فيهم شعوراً بالصغار لا بدّ من التخلص من ربقته مهما يكن الثمن

وقد كنا نحن دعاة السلام من الالمان، نكتب ونذيع مدى عشر سنوات، داعين الى التفاهم الاوربي وتأييد العصبة كما يجب ان تكون، وجاءت علينا فترة من الزمن بدا لنا فيها بريق أمل في ان يحل التفهم محلّ الثأر. ولكننا نسينا ان احدى هاتين الامتين أعظم حيوية، وأضيق أرضاً بشعبها، وأشد إستعداداً للكفاح من جارتها. واذا كان الشعب الفرنسي بعد هزيمته في حرب السبعين تحمل آثار هذه الهزيمة بصبر مدى أربعين سنة ثم تعرَّض ثانية لاعتداء المنتصر الاول عليه، فأحرِ بألمانيا وهي المهزومة ان تستعدّ لاعادة الكرَّة. واذا كنا قد عقدنا الامل يوماً ما على الحيلولة دون هذا، فانا كنا على خطإٍ لان الخلق الالماني يناقضهُ على خطٍّ مستقيم

ومن غريب الامر، ان الطفل الالماني يتعلَّم في كتب المدرسة ان ستراسبورج كانت المانية وستظل المانية، حالة ان هتلر يذيع في خطبه منكراً انهُ يرغب او يفكر في السعي الى استعادتها. واذ يؤكد لفرنسا ان لا باعث للنزاع بين الامتين، يباع «كفاحي» في المانيا بعشرات الالوف من النسخ وفيه ما فيه عن أن فرنسا هي «العدوّ الاصيل». كان العالم يحسب ان نقض معاهدة من كبائر الامور، وجاءت عليه عشرون سنة منذ نشبت الحرب الكبرى ورواية «قصاصة الورق» من اكبر ما يوجَّه الى المانيا القيصرية من التهم. ولكن المانيا اليوم تقول «ان المعاهدات تظل نافذة ما زالت مؤاتية لمصلحة الدولة». وقد قيل هذا القول ونشر في الجرائد الرسمية منصوباً على معاهدات قبلتها المانيا عن رضاً ولم تكره عليها إكراهاً كمعاهدة فرساي. ومع اني كنت مخالفاً للهر بروننغ في الخطة السياسية، الا ان ذلك لا يمنعني من ان اقول ان بروننغ كان آخر الماني فاوض وعقد معاهدات على أساس من الثقة واحترام التوقيع

هذه الخصائص الاساسية في الخلق القومي الالماني متجسمة بارزة في عهد الحكم الحالي — على رأي اميل لدفج وعن مقالٍ لهُ في الاتلنتك منثلي لخصنا ما تقدم — فروح المانيا المنبعثة لا يمكن ان تفهم الا بدرس من هذا القبيل